التربية الإجتماعية فى القرآن الكريم

للأستاذ حسن كامل الملطاوى

وكيل وزارة الخزانة ورئيس مجلس إدارة مسجد الإمام الحسين

والمتأمل فى كتاب الله الكريم يرى أنه حرص فى أكثر من موضع آخر على صيانة كيان الأسرة ووضع الحلول لتفادى مساوىء افتراق الزوجين وكفى عظة للمؤمنين ما حكاه الله فى سورة المجادلة من أن يستمع الله فى عليائه لزوجة تجادل فى رزوجها حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم وتنتهى القصة بحكم شرعى يلم شتات الأسرة ويبقى على سعادة الزوجين والأولاد .

وللاعتبار فى الحياة الزوجية بقصة المجادلة نسوقها مفصلة كما رووها كتب الأئمة المفسرين .

يقول الله تعالى فى سورة المجادلة :

« قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو عفور ، والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطيع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم » .

والتى جادلت فى زوجها هى السيدة خولة بنت ثعلبة زوجة الصحابى الجليل أوس بن الصامت رضى الله عن الصحابة جميعا .

وقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها فى قصتها تبارك الذى وسع سمعه كل شىء إنى لا سمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى تقول : يارسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى حتى إذا

كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى اللهم إنى اشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية :

« قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله » .

ظاهر منى أى قال لها أنت على كظهر امى ، وكان الظهار من الطلاق فى الجاهلية .

وفى رواية أخرى أنها سألت النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها حرمت عليه فقالت والله ما ذكر طلاقا ثم قالت أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ووحشتى وفراق زوجى وابن عمى وقد نفضت له بطنى فقال حرمت عليه فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت الآية .

وروى مولانا الحسن أنها قالت يارسول الله قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجى ظاهر منى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى إلى فى هذا شىء فقالت يارسول الله أوحى إليك فى كل شىء وطوى عنك هذا فقالت إلى الله أشكو فأنزل الله : قد سمع .

وجاء فى تفسير الامام النسفى أنها قالت إن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلى جاعوا .

وكل هذه الروايات متفقة فى المغزى وإن اختلفت فى اللفظ .

وإن دلت هذه القصة الرائعة على شىء فإنما تدل على أن الله تعالى يحب من عباده أن يصونوا رباط الزوجية حتى لا تشقى الأسرة كلها بفك ذلك الرباط الطاهر ، وقد أنزل الله حكم الفدية فى الظهار على التفصيل الوارد فى السورة تجنبا للفرقة ، كما أن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم جارى مشيئة الله العلية فأعان بماله أوس بن الصامت فى الفدية وتفصيل ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال له : مالى بذلك يدان قال : فصم شهرين متتابعين قال . أما أنى إذا أخطأنى أن آكل فى يوم ثلاث مرات يكل بصرى قال فأطعم ستين مسكينا قال : ما أجد إلا أن تعينى منك بعون وصلة . قال فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعا حتى جمع الله له .

وقد رفعت سورة المجادلة مكانة السيدة خولة بل خلدتها فى النساء والواقع أنها أبرزت إخلاصها لزوجها ولأولادها وضربت للزوجات مثلا باقيا بقاء السماء والأرضين.

والدليل الذى أسوقه على رفعة مكانتها إجلال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

لها فقد مر بها رضوان الله عليه والناس معه على حمار فاستوقفته طويلا ووعظته وقالت ياعمر قد كنت تدعى عميرا ثم قيل لك عمر ثم قيل لك أمير المؤمنين فاتق الله ياعمر فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب ـ وهو واقف يسمع كلامها فقيل له يا أمير المؤمنين اتقف لهذه العجوز هذا الوقوف فقال والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز هى خولة بنت ثعلبة قد سمع الله قولها من فوق سبع سموات أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر .

فهلا وقف رجالنا ونساؤنا على مفاخر هذه القصة الخالدة فاتعظوا بها فأمسك الرجال عليهم زوجاتهم وأخلصت النساء لازواجهن وأولادهن مثل إخلاص خولة حتى تتفادى الأسر الكدر والخصام وتعيش فى صفاء وسلام .

ولا شك أن هناك اسبابا لصفاء الأسرة وسلامتها رسمها الله واضحة بينة فى كتابه الكريم وهى :

التراضى والتشاور بين الزوجين:

يقول تعالى فى سورة البقرة :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » .

وإذا كان الله يريد من الزوجين أن يتم فطام الطفل عن تراض وتشاور بين الزجين فبالقياس يحب الله من الزوجين أن يقوم بينهما التراضى والتشاور فى الأمور الأخرى التى تمس صالح الأسرة فلا ينفرد بها الزوج عن تعنت ولا تستقل بها الزوجة عن إمرة فيدب الخلاف الذى قد تسوء عقباه .

التعاون المالى بين الزوجين

ومع أن الإسلام جعل النفقة على عنق الرجل فى قوله تعالى :

«الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم» .

فإنه دعا النساء إلى التعاون المالى مع أزواجهن بتعبير جميل فى قوله تعالى :

« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » .

وفى حين يكون المال المأخوذ عن طيب نفس من الزوجة هنيئاً مريئاً يكون الافتيات على حقها فى مالها بهتانا وإثما مبيناً كما بينت الآية الكريمة .

« وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتانا وإثما مبينا » .

وقد أعانت السيدة خديجة أم المؤمنين عليها السلام حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم بمالها وكان يثنى عليها فى هذا الموقف ويقول مشيراً إلى فضلها إنها آمنت بى حين كذبنى الناس وواستنى بمالها حين حرمنى الناس .

ومما تقدم ترون أن الرجال الذين لا يقومون بواجب النفقة على الأسرة مخطئون واللائى يتخلين من النساء الموسرات عن معاونة الأسرة مخطئات وواجب على الطرفين أن يتراجعا ويصححا موقفهما ويذعنا لإرشاد الله الذى لا يعلوه إرشاد .

المصابرة :

والمصابرة بين الزوجين واجبة لصيانة كيان الأسرة وهى مأجورة من الله تعالى ، ولو فهم الأزواج روح الدين ما قام بين الزوجين شقاق لأنفه الأسباب .

ولا بد أن يفهم الطرفان أنهما بشر وتقع الخطيئة من كل منهما وواجب على الطرفين أن يتسامحا حتى لا تتسع شقة الخلاف .

وعند استحكام الخلاف يجب أن يتدخل العقلاء من أهل الزوج والزوجة لإصلاح ذات البين ويجب أن يستمع الزوجان إلى نصيحة العقلاء . وما أحلى ما يقوله الله إرشاداً لهما فى هذا المقام :

« إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما »

ويجب على الزوجين التماس العذر لبعضهما البعض حتى يتغلبا على هواجس النفس والشيطان ولا يقوم بينهما سوء ظن يتبعه نفور مستحكم .

كذلك يجب على كل منهما أن يجاهد نفسه فى نزعات الهوى التى قد تنشأ عن

اختلاف الشكل ، فكثيرا ما يعوض الله النقائص بفضائل خلقية أو عقلية وإذا نظر كل إلى المجموع إرتاح لدوام العشرة .

والآية الكريمة المتقدمة « إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » تفيد أن النية الطيبة التى ينويان بها المعايشة الزوجية تكون سببا فى التوفيق بينهما على الدوام :

ومن طريف ما قرأته فى هذه المناسبة أن عمران الخارجى كان دميم الخلقة وكانت أمراته من أجمل النساء ، فنظرت إليه وقالت الحمد لله على أنى وإياك من أهل الجنة ، قال كيف فقالت لأنك رزقت مثلى فشكرت ورزقت مثلك فصبرت والجنة موعوده للصابرين والشاكرين .

تعدد الزواج وسوء استعمال الحق فيه :

ومن دواعى الخلاف فى الأسرة تعدد الزواج وخاصة إذا أسيء استعمال الحق فيه ولم يكن عن ضرورة ملحة .

نعم إن الله تعالى أباح تعدد الزواج ولكن قيده بعدل لا يتأتى لبشر إلا فى القليل الذى لا يقاس عليه .

ولو تحرى المؤمنون رشدا لتجنبوا تعدد الزواج ولما لجأوا إليه إلا عند الضرورة القصوى التى تبرره بيقين ، وذلك لأسباب اجتماعية ومالية أبرزتها الآية الكريمة براز لا خفاء فيه :

وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » .

وإذا رجع إخوانى إلى الآية التى قبل السابقة وهى :

« وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا » .

فإذا ربطنا بين الآيتين وجدنا أن الله قاس الاعتداء على أموال اليتامى باعتداء على حق الزوجات عند التعدد بعدم العدل بينهن ، وإذن فهو حوب كبير والحوب الكبير هو الذنب العظيم وما أروعه من قياس مخيف .

والذى يخلص الرجال من هذا الحوب الكبير هو أن يكتفى الزوج بزوجة واحدة اتباعا لقوله تعالى « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ما لم تلجىء الزوج ظروف

خاصة تخرجه عن هذه القاعدة والمؤمن أمين على دينه وسيقول له الله يوم القيامة « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »

هذا من الناحية الاجتماعية ؛أما من الناحية المالية فما أبدع قوله تعالى « ذلك أدنى ألا تعولوا » ولاشك أن تعدد الزوجات مدعاة لكثرة الأولاد ، وكثرة الأولاد مدعاة لزيادة النفقة وفى اللغة عال الرجل عياله يعولهم كقولهم مانهم يمونهم إذا أنفق عليهم ، وإلى هذا ذهب الإمام الشافعى فى تفسير تلك الآية وحسبك به حجة فى العلم .

ولئن التزم أسلافنا الصالحون جانب الحذر بحكم هذا الإرشاد الربانى ، فنحن أحوج منهم إلى الحذر فى الزمن الحاضر وأين نفقاتنا اليوم من نفقتهم بالأمس .

ومن عجب أن يقول العوام فى تبرير تصرفهم السيىء فى تعدد الزواج دون مبرر صحيح ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدد الزواج وهم فى هذا التبرير يجهلون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعدد الزواج لشهوة جسدية كما يفعلون ولكن لغايات دينية عظمى.

ولدقة هذا المقام أسوق شيئاً من التفصيل :

قليل من المسلمين من يعرف أن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم على كثرة من تزوجهن لم يتزوج بكرا إلا السيدة عائشة وكان ذلك بعد أن جاوز الخمسين ، وهذا وحده كاف لدفع قالة السوء .

أما أولى زوجاته فهى أم المؤمنين سيدتنا خديجة رضوان الله عليها وكانت حين تزوجها ثيبا فى سن الأربعين وكان هو فى سن الخامسة والعشرين ولم يتزوج عليها قط مدة حياتها .

ثم إنه تزوج بالسيدة صفية بنت حيي وقد كانت يهودية وأسلمت كما كانت السيدة مارية قبطية وأسلمت وفى ذلك تأليف لأهل الكتاب للدخول فى الإسلام .

وتزوج أم المؤمنين زينب للحكمة التى بينها الله :

« وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا » .

وتزوج بسائر أمهات المؤمنين لظروف بينتها كتب السيرة وليس لها الطابع الذى يتخرص به المتخرصون .